

المُعْجَمُ الْعَرَبِيُّ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْخِطَابِ

أ. د. إبراهيم بن مراد

مركز الملك عبد الله بن عبدالعزيز الدولي

لخدمة اللغة العربية

King Abdullah Bin Abdulaziz Int'l Center for

The Arabic Language



المُعْجَمُ الْعَرَبِيُّ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْخِطَابِ

أ. د. إبراهيم بن مراد
أستاذ التعليم العالي في جامعة منوبة - تونس
رئيس جمعية المعجمية العربية بتونس

③ مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إبراهيم بن مراد

المُعْجَمُ الْعَرَبِيُّ بَيْنَ اللَّغَةِ وَالْخِطَابِ. / إبراهيم بن مراد

- الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٧٢٠-٣-٤

١. اللغة العربية - معاجم أ. العنوان

ديوي ٤١٣ ١٤٣٧/١٩٨٠

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٩٨٠

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٧٢٠-٣-٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كلمة المركز:

انطلاقاً من اهتمام مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، بدراسة أوضاع اللغة العربية وأحوالها، وتحقيقاً للأهداف التي يتغياها المركز، وحرصاً منه على تنويع مناشطه وفعالياته والشرائح المستهدفة، فقد أقر مجلس الأمناء في المركز برنامجاً علمياً تحت اسم: (برنامج المحاضرات العلمية) تُقدّم من خلاله، محاضرات نوعية ومتميزة، وذلك باستقطاب علماء ومتخصصين في اللغة العربية من العرب وغيرهم.

ويهدف المركز من خلال برنامج المحاضرات العلمية إلى تسليط الضوء على موضوعات لغوية مختارة، وعلى قضايا وإشكالات تمس الهوية اللغوية العربية، ومعالجتها بطرح علمي معاصر، للخروج بمشروعات علمية متنوعة تساهم في خدمة اللغة العربية، وتعزيز محلّها بين اللغات.

ويعقد المركز برنامج المحاضرات في أماكن متفرقة، يدعى إليها المتخصصون في اللغة، والباحثون والمهتمون، وطلاب الدراسات العليا، ويتضمن البرنامج إلى جانب المحاضرة حلقة نقاش متخصصة في اهتمام المحاضر، ومسيرته العلمية، والآفاق البحثية التي رادها، والتي يوصي بارتياحها.

ويسرنا أن نضع بين أيديكم نص المحاضرة التي قدمها سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم بن مراد، بعنوان: «المَعْجَمُ الْعَرَبِيُّ بَيْنَ اللِّغَةِ وَالْخِطَابِ»، المعقودة في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، واثقين بأنكم ستجدون فيها وفراً علمياً، ومفاتيح لمشروعات علمية وعملية.

الأمانة العامة



١ - في مفهوم المعجم :

١ - ١ . ثنائية تكوين نظام اللغة ومفهوم المعجم في الفكر اللغوي العربي القديم :

يتفق علماء اللغة القدامى واللسانيون المحدثون على أن نظام اللغة قائم على نظامين فرعيين هما (١) نظام المعجم و(٢) نظام النحو . وعندما نتحدث عن اللغويين القدامى فإننا نعني بصفة خاصة اللغويين العرب الذين نظروا إلى نظام اللغة نظرة شمولية منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وخاصة على يدي الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت . ١٧٥ هـ / ٧٩١ م) وتلاميذه من بعده . فإن الناظر في «التراث» الخليلي اليوم يتبين بيسر أنه كان ذا رؤية لسانية شاملة للفروع المكونة لنظام اللغة العام وهي الأصوات والصرف والنحو والمعجم . أما دوره في وضع علم النحو فيشهد به «الكتاب» لسيبويه لغلبة الاستشهاد به فيه^(١) . وقد أقرّ القدماء إقراراً بيّناً بالأثر الحاسم الذي كان للخليل في سيبويه وكتابه^(٢) . على أن أثر الخليل في «الكتاب» لا ينحصر في المكون النحوي بمكوناته الإعرابي والتصريفي بل يتجاوزه إلى الأصوات ومسائل الصرف الاشتقاقي أيضاً ، وهما كما سنرى في هذا البحث من مكونات النظرية المعجمية أيضاً . وأما دور الخليل في وضع النظرية المعجمية العربية وتطبيقاتها فيشهد به كتاب

(١) ينظر : Sellheim, Rudolf : Art. « Al-Khalîl b. Aîmad », in EI², IV, Brill, Leiden : 994a - Maisonneuve, Paris, 1978, p. 994a ؛ وقد تتبع تلك الشواهد بالإحصاء والتوثيق فؤاد سزكين في : Sezgin, Fuat : GAS, IX, Grammatik, Brill, Leiden. 1984, pp. 46 - 47 . وقد حرص سزكين على ذكر العبارات التي يستعملها سيبويه في الإحالة إلى الخليل مثل «قال الخليل» و«قول الخليل» و«زمع الخليل» و«سألت الخليل» و«هذا تفسير الخليل» ... إلخ .

(٢) من ذلك قول ثعلب : «الأصول والمسائل [في الكتاب] للخليل» - ينظر ابن النديم : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، ١٩٧١ ، ص ٥٧ ؛ وقول أبي عبيد الله المرزباني (نور القيس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء ، تحقيق رودلف زلهام ، فيسبادن ، ١٩٦٤ ، ص ٥٦) : «ألف [سيبويه] كتابه الذي سماه الناس قرآن النحو وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل» ؛ وقول أبي البركات ابن الأنباري (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، بغداد ، ١٩٥٩ ، ص ٢٩) : «عامه الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل . وكلما قال سيبويه «سألت» أو «قال» من غير أن يذكر قائله فهو الخليل» .

العين عامّة ومقدّمته خاصّة : فقد كانت مقدمته مقدّمة نظرية في المعجم وكان الكتاب تطبيقاً عملياً لتلك النظرية^(١) .

والنظر المعمّق في مقدمة كتاب العين يُظهِرُ أن الخليل كان ينظر إلى المفردة التي نُسِمِّيها وحدة معجمية بسيطة من حيث هي فرد لغويّ ينتمي إلى المعجم نظرة تختلف عن نظريته إليها من حيث هي عنصرٌ تركيبِيٌّ في جملة نحويّة ، أي باعتبارها ما نُسَمِّيهِ «ذرة تركيبية» (= Syntactac atome) ، تنتمي إلى النحو. فهي عندما تكون ذرة تركيبية تكون - كما تُظهِرُ ذلك النماذج التحليلية المنسوبة إلى الخليل في كتاب سيبويه - ذات وظائف وحالات ومواقع إعرابية في الجملة ، وذات حالات تصريفية في الخطاب ، أي تكون عنصراً في بنية لغوية مجردة ، ذا علاقة بعناصر أخرى داخل البنية ذاتها ، أي داخل اللغة ، غير محيل إلى تجربة الجماعة اللغوية ، بل إن من النماذج المذكورة ما هو مجرد تمثيلات نحوية يراد بها إثبات جواز الاستعمال أو عدم جوازه^(٢) . أما عندما تكون وحدة معجمية فهي ذات خصائص ذاتية هي التي تسمح لها بالانتماء إلى اللغة وخاصة إلى معجمها . وقد اهتم الخليل بهذه الخصائص عندما أراد أن يحدّد ماهية «الكلمة» العربية ليفرّق بين ما هو من كلام العرب - فهو من اللغة العربية - وما ليس من كلامهم ، فيكون من المبتدع المحدث فيه ، إمّا لأنه مما اختلقه «النحّارين» من الأعراب - ف«إن النّحّارين

(١) ينظر تحليل موسع لهذه النظرية الخليلية في ابن مراد ، إبراهيم : مسائل في المعجم ، دار الغرب الإسلامي

بيروت ، ١٩٩٧ (بحث «في النظرية المعجمية العربية : قراءة في النموذج الخليلي») ، ص ص ١٠ - ٢٦ .

(٢) ينظر مثلاً رأيه في نصب «خَيْرًا» في قوله تعالى : ﴿انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ﴾ (سورة النساء ، ١٧١) - الكتاب ،

تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٦ - ١٩٧٧ ، ١/٢٨٢ - ٢٨٤ ؛ وتعليه النصب

في «مَرْحَبًا» و«أَهْلًا» - نفسه ، ١/٢٩٥ ؛ وتعليه التثنية في «حَنَانِيكَ» و«لَبِيَّكَ» و«سَعْدِيكَ» - نفسه ، ١/٣٤٨ -

٣٤٩ ؛ وتعليه النصب في قولهم «أَمَّا سَمْنًا فسمين وأما علماً فعالم» - نفسه ، ١/٣٨٤ ؛ وتعليه استعمال

الجمع بدل المثنى في مثل «ما أَحْسَنَ وَجوهَهُمَا» عوض «وَجْهَيْهِمَا» - نفسه ، ٢/٤٨ ؛ وتعليه جر البديل في مثل

«مررتُ به المسكين» - نفسه ، ٢/٧٥ ؛ وتعليه جواز رفع «منطلق» في مثل «هذا عبد الله منطلق» - نفسه ،

منهم ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنية»^(١)
- وإما لأنه من الأعجمي المقترض الذي دخل العربية من لغات أخرى .

والخصائص التمييزية التي ارتآها الخليل أربع ، سنرى قيمة ثلاثٍ منها
في نظرية المعجم في اللسانيات الحديثة ، في الفقرة (٢ - ٣) :

أولها صوتية بتحديد نمطية التأليف الصوتي في الوحدة المعجمية
ال بسيطة العربية وتأكيده القيمة التمييزية لأصوات بعينها رأى أنها من
خصائص التأليف الصوتي في المفردة العربية - وخاصة في الرباعيّات
والخماسيّات من الأبنية - هي ستة حروف أو صوامت سمّى ثلاثة منها «حروف
الذلاقة» ، وهي الراء واللام والنون ، وسمّى الثلاثة الأخرى «الحروف الشفوية»
وهي الفاء والباء والميم^(٢) ، وقد أضاف إلى هذه الصوامت الستة أربعة صوامت
أخرى سماها «حروف الطلاقة» وهي العين والقاف والسين والذال^(٣) ، لكنّ هذه
الصوامت أقلّ تواترا من الستة الأولى .

والخصيصة الثانية صرفية ، وقد حدّد بها الخليل نمطية البنية
الصرفية في المفردة العربية ، والأبنية الأصول التي تكون للمفردة العربية أربعة
هي الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي^(٤) ، والبنية الخماسية هي الحد
الأقصى في الأفعال وفي الأسماء ، والبنية الدنيا في الأفعال تكون من حرفين وفي
الأسماء تكون من ثلاثة أحرف^(٥) . وأما ما يردّ من الأسماء على حرفين - مثل
يدٌ وقمٌ ودَمٌ - فهي في نظره ثلاثية لأن «لفظها على حرفين وتماها ومعناها
على ثلاثة أحرف»^(٦) . ولهذه الخصيصة الصرفية صلة ظاهرة بالخصيصة

(١) الخليل : كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،
بيروت ، ١٩٨٨ (٨ أجزاء) ، ٥٣/١ .

(٢) المرجع نفسه ، ٥٢/١ .

(٣) المرجع نفسه ، ٥٤/١ .

(٤) المرجع نفسه ، ٤٨/١ .

(٥) المرجع نفسه ، ٤٩/١ .

(٦) المرجع نفسه ، ٥٠/١ .

الصوتية لأنها تحدّد عدد الصوامت الأصول التي يتكوّن منها الجذر في العربية وتمكّن من التمييز بين الحروف الأصول والحروف الزوائد في المفردات العربية المشتقة .

والخصيصة الثالثة دلالية . وقد حدّد بها الخليل نمطية الوحدات الجذرية إذا كانت جذورا - وهي «مركبات صوتية صامتة» حاملة لدلالات عامّة - أو وحدات جذعية إذا كانت وحدات معجمية قائمة في الاستعمال كما تظهر أو لا تظهر في الاستعمال اللغوي الفعلي . ذلك أن «المركبات الصوتية الصامتة» حسب كتاب العين صنفان : أولهما مركبات صوتية ليس لها امتداد في الاستعمال اللغوي وهي تنتمي إلى ما يسميه الخليل «المهمل» ، ومركبات صوتية ذات امتداد في الاستعمال إذ تتفرّع عنها الجذوع وهي الوحدات المعجمية المشتقة القائمة في الاستعمال ، ويسمّي الخليل هذا الصنف «المستعمل»^(١) . وإذن فإن الخصيصتين الأولى والثانية - أي التآليف الصوتي والبنية الصرفية - لا قيمة لهما ما لم تظهر في الصنف الثاني : أي المستعمل . وهذه الخصيصة تعدّ تمييزية لأنها تميّز بين «اللامنجز» من المركبات الصوتية الصامتة وهو «المهمل» و«المنجز» منها وهو «المستعمل» ، والمنجز لا ينتمي إلى المستعمل إلا إذا كان دالا ، أي حاملا لمعزى معجمي ، وهذا يعني أن المستعمل تمثله المركبات الحاملة للدلالة والتي تصير جذوعا ، وأن المهمل تمثله المركبات غير الدالة لأنها ليست ذات امتداد في الاستعمال ، فتسقط لذلك من المعجم .

والخصيصة الرابعة معجمية رياضية . وهي قابلية الوحدة المعجمية

(١) لم يخص الخليل المهمل والمستعمل بفقرة مستقلة في مقدمة الكتاب ولكنهما يستخلصان من أثناء حديثه عن وجوه «التقليبات» للمركبات الصوتية الرباعية والخماسية ، فإن وجوه التقليب من الرباعيات أربعة وعشرون وجها «يكتب مستعملها ويلغى مهملها» ، ووجوه تقليب الخماسيات مائة وعشرون وجها «يستعمل أقله ويلغى أكثره» - المرجع نفسه ، ٥٩/١ : ثم إن «المدخل الفرعية» في الكتاب قائمة على التمييز بين المهمل والمستعمل منها ، ومثال ذلك من «باب العين والكاف والدال معهما» أن «ع ك د ، د ع ك ، د ك ع مستعملات ، وع د ك ، ك د ع ، ل ع ك مستعملات ، و ك ع ل ، ل ع ك مهملتان» - نفسه ، ٢٠١/١ .

ال بسيطة للإحصاء الرياضي، وهي في الحقيقة نتيجة لتحقيق الخصائص الثلاث الأولى، فإن قابلية أي عنصر في أي مجموعة أو بنية أو نظام للإحصاء الرياضي أو للعدّ تقتضي أن يكون «عنصراً فرداً» له من الخصائص التمييزية ما يمكنه من «التفرد» بذاته بين بقية أفراد المجموعة أو البنية أو النظام، ولذلك فإن الوحدة المعجمية البسيطة لا تكون ذات قابلية للإحصاء الرياضي إلا إذا كانت «فرداً لسانياً» له خصائصه التمييزية التي تمكنه من «التفرد» ومن الاندراج - نتيجة تفرد - في أنساق من العلاقات الائتلافية والاختلافية مع غيره من الأفراد اللسانية، داخل نظام لساني هو المعجم. وقد استنبط الخليل من أجل استقصاء الإحصاء الرياضي الافتراضي للأصول الجذرية التي تتولد منها الأصول الجذعية الرئيسية التي تتولد عنها بدورها الجذوع الفروع نظريته في «التقليب»^(١)، وغايته من تطبيقها هي أن يستوعب جمع المستعمل من كلام العرب في «أشعارها وأمثالها ومخاطباتها»^(٢) دون «أن يخرج منه شيء» أو «يشدّ عنه شيء من ذلك»^(٣).

وأهم الاستنتاجات التي نخرج بها من حديثنا عن «نظرية الخليل المعجمية» ثلاثة:

الأول هو تفتن الخليل المبكر إلى ما يمكن تسميته «ثنائية الوجه» في المفردة، وهذه الثنائية هي التي ستكون وجهي الدليل اللغوي في النظرية اللسانية الحديثة مع دي سوسير (De Saussure) في كتابه «دروس في اللسانيات العامة». فإنّ الدليل (Signe) اللغوي يتكوّن من دالّ (Signifiant) هو وجهه الشكلي - وقد انحصر في اللسانيات الغربية في المكوّن الصوتي - وفي

(١) مكنه نظرية التقليب من أن يتبين أن الكلمة الثنائية تنصرف على وجهين وأن الكلمة الثلاثية تنصرف على ستة أوجه وأن الرباعية تنصرف على أربعة وعشرين وجهاً وأن الخماسية تنصرف على مائة وعشرين وجهاً - ينظر المرجع السابق، ٥٩/١؛ وكلما كثر عدد الوجوه - مثل وجوه الخماسي - قل المستعمل وكثر المهمل، وكلما قل عدد الوجوه - مثل وجوه الثلاثي - كثر المستعمل وقل المهمل.

(٢) المرجع نفسه، ٤٧/١.

(٣) المرجع نفسه، ٤٧/١.

مدلول (Signifié) هو وجهه الدلالي لأنه يمثل المحتوى الدلالي الذي يحمله الدليل أو المفردة .

والاستنتاج الثاني هو أن تأليف كتاب العين كان تطبيقاً لنظرية لسانية معجمية ولم يكن تقليداً أو محاكاة لتجربة أو لنظرية سابقة ؛ ومثلما ابتكر الخليل علم العروض - وله علاقة بعلم الموسيقى - ووجه الدرس النحوي على المذهب البصري خاصة كما صوره سيبويه في الكتاب ، ابتكر التأليف القاموسي في العربية ؛ ويمكن لنا اعتبار كتاب العين أول قاموس يؤلف في تاريخ اللغات حسب المنهج العلمي اللساني الذي عرفته العربية ثم عرفته اللغات الأخرى. وما يقال عن تأثير هندي محتمل في عمل الخليل يبقى مجرد تخمين ليس له من الأدلة ما يدعمه .

والاستنتاج الثالث هو أن الخليل كما يظهره كتاب العين كان لسانياً معجمياً، بينما الخليل الذي يظهره «الكتاب» لسيبويه كان لسانياً نحوياً^(١) . فالعالم اللساني إذن واحد لكنه قد جمع بين علمين مختلفين . واجتماع العلمين فيه دال على ما كنا أشرنا إليه من قبل من تصوره الشمولي لنظام اللغة الذي كان يراه قائماً على نظامين فرعيين هما نظام المعجم وقوامه المفردات ونظام النحو وقوامه التراكيب أو الجمل . لكن هذا التصور الخليلي النظري المبتكر سرعان ما تأسس بداية من القرن الرابع الهجري بعد أن تعمّد أبو منصور الأزهري إثارة الشك في حقيقة مؤلف كتاب العين وأدعى نسبته إلى أحد تلاميذ الخليل هو الليث بن المظفر ، ومنطلقه في ذلك كثرة الأخطاء التي توجد في الكتاب وتزيه الخليل عن الوقوع فيها ؛ وقد اتهم الليث صراحة في مقدمة كتابه «التهذيب» بأنه المؤلف الحقيقي للكتاب وأنه نحل الخليل : «فمن المتقدمين الليث بن المظفر الذي نحل الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين جملة لينفقه

(١) قد نسبت إليه كتب في النحو أيضاً ذكرها فؤاد سزكين في الجزء التاسع المخصص للنحو من كتابه تاريخ التراث العربي ، ومنها «كتاب الجمل في النحو» و«وجه النصب» و«كتاب العوامل» ، ولكن هذه الكتب قد ضاعت - ينظر : Sezgin , F. : GAS, IX, 47 - 48 .

باسمه ويرغب فيه من حوله»^(١). ورغم هذا التجريح والتشكيك (في نسبة الكتاب إلى الخليل فقد تبين أنه نقل مادته برمتها في كتابه، وأنه قد نسب إلى الكتاب أخطاء ليست فيه، وأن غايته من انتقاده كانت الترويج لكتابه^(٢)).

وما يعنينا من هذه البلبلة التي أثارها الأزهري حول كتاب العين أنها صرفت عنه وعن نظرية الخليل فيه اهتمام اللغويين اللاحقين. وقد تواصل تأليف القواميس بعد كتاب العين لكنه لم يكن تطبيقاً لنظرية لسانية معجمية بل كان قائماً على جمع متن اللغة إما من أفواه الفصحاء والعلماء الثقات حتى أواخر القرن الرابع الهجري وإما بالنقل من المدونات الموثوقة بصحتها من ألفاظ اللغة وخاصة من القواميس السابقة، بعد القرن الرابع، وقد استفحلت بعد القرن الرابع ظاهرة «نقل اللاحق عن السابق» واستقرّ مع هذه القواميس تصور جديد للنظام الفرعي الأول من نظام اللغة سمي «علم اللغة»، واللغة - حسب المفهوم الشائع - هي «ألفاظ يُعبّرُ بها عن المعاني»^(٣). وما يهم اللغوي من هذه الألفاظ إذن هي معانيها فقط، ولذلك أصبحت كتب «اللغة» هي القواميس بمختلف أنماطها، وصار التصور الثنائي لفرعي نظام اللغة قائماً على «اللغة» أي على «الألفاظ» من حيث هي «وحدات قاموسية» - أي مداخل في قاموس ما - وعلى النحو أي على الجمل والتركيب و«الذرات التركيبية» المكوّنة لها^(٤).

(١) أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٤ - ١٩٦٧، ٢٨/١ - ٢٩.

(٢) تنظر مناقشة لمسألة نسبة الكتاب مع ذكر أمثلة من الشواهد الدالة على تعصب الأزهري وتعسفه على مؤلفه في مقدمة تحقيق كتاب العين لمهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ١٩/١ - ٢٤: المهيري، عبد القادر: أعلام وآثار من التراث اللغوي، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٣، (ص ٩ - ٣٥، فصل «الخليل بن أحمد وكتاب العين»)، ص ٢٥ - ٣٥: Talmon, R.: *Arabic Grammar in its Formative Age: Kitāb al - Ḥayn and its Attribution to ʿĀlī b. Aḥmad*, Brill, Leiden, 1997, pp. 91 - 287، ويلاحظ أن مؤلف هذا الكتاب قد نسب كتاب العين إلى النحو وليس إلى المعجم.

(٣) ينظر ابن حزم الأندلسي: رسالة مراتب العلوم، ضمن رسائل بن حزم الأندلسي، ج ٤، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص ٦٦.

(٤) قد غلب هذا التقسيم إلى «لغة» و«نحو» على بعض مؤلفي كتب الطبقات مثل أبي بكر الزبيدي في كتابه طبقات النحويين واللغويين (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤)،

١ - ٢ . ثنائية التكوين ومفهوم المعجم في الفكر اللساني الحديث :

وأما اللسانيون المحدثون فقد بدأ العرفانيون (Cognitivistes) منهم خاصة في الربع الأخير من القرن الميلادي الماضي بالتصريح بثنائية تكوين نظام اللغة من نظامين فرعيين هما نظام المعجم ونظام النحو^(١). وهذا المذهب يمثل تطوراً كبيراً بلا شك في الدراسات اللسانية الغربية ، وخاصة بعد النظرة التحقيرية إلى المعجم عند بلومفيلد الذي كان يرى فيه «ذيلًا للنحو (An appendix of the grammar) وقائمة من الشواذ الأساسية [أو اللاقياسيات الأساسية] (A list of basic irregularities) ، وهذا يتضح أكثر إذا اعتبرنا دلالات الوحدات المعجمية، إذ إن لكل منها دلالة قد أسندت إليها بحكم عُرِف اعتباراً (An arbitrary tradition)»^(٢) ، ثم عند تشومسكي الذي كانت منطلقاته اللسانية الأولى خلال السنوات الخمسين وبدايات السنوات الستين من القرن العشرين منطلقات نحوية صرفاً ، وقد سعى إلى بناء نظرية نحوية مستقلة عن الدلالة لأن الدلالة في نظره لا تصلح لأن تكون معياراً للنحوية : «فكلُّ بحث في النحوية (Grammaticality) متأسس على الدلالة سيكون غير مُجَدٍّ»^(٣) ، فكان النحو الذي ارتآه نحواً شكلياً (Grammaire formelle) صرفاً .

وقد قسم البصريين إلى نحويين (ص ص ٢١ - ١٢١) ولغويين (ص ص ١٥٧ - ١٨٨) ، وقسم الكوفيين إلى نحويين (ص ص ١٢٥ - ١٥٤) ولغويين (ص ص ١٩١ - ٢٢٢) . ويُلاحظ أنه ترجم لأبي عمرو بن العلاء مع النحاة (ص ص ٣٥ - ٤٠) ومع اللغويين (ص ١٥٩) لكنه لم يخصه في الموضوع الثاني بأكثر من سطرين ؛ أما الخليل بن أحمد فلم يذكره إلا مع النحاة ، ص ص ٤٧ - ٥١ رغم أن كتاب العين من أهم كتب اللغة ورغم اهتمام الزبيدي نفسه به إذ قام باختصاره ، ويظهر في ذلك أثر الموقف من نسبة الكتاب إلى الخليل ، ولا شك أن ذلك كان بتأثير من شيخه أبي علي القالي الذي نقل من المشرق - من بغداد - إلى الأندلس الحملة ضد كتاب العين وكان من المشاركين فيها بتشكيكه هو أيضاً في نسبة كتاب العين إلى الخليل .

(١) ينظر خاصة Talmy , Leonard : *Toward a Cognitive Semantics*. The MIT Press, Massachusetts, 2000 (2 vol.), 1/21 - 24

(٢) Bloomfield, Leonard : *Language*, The University of Chicago Press, Chicago, 1984, p. 274

(٣) Chomsky , Noam : *Structures syntaxiques (Syntactic Structures)*, traduit par Michel Braudeau, Editions du Seuil, Paris, 1969, p. 18, 121

ولكنّ المعجم في هذا التصور الثنائي لتكوين نظام اللغة العامّ لم يخلص حتى بداية السنوات التسعين من القرن العشرين خلوصاً تامّاً من تبعيّته للنحو. ونحن نجد مفهوميّن له كانا سائدين في الدراسات الغربية :

١ - ٢ - ١ . المُعْجَم القَائِمَةُ :

المفهوم الأول متأثر بتصوّر بلومفيلد الذي يعتبر المعجم كما رأينا «ذيلًا للنحو وقائمة من الشواذ الأساسية» ، ومفهوم «المعجم القائمة» يختلط في الحقيقة بمفهوم «المعجم القاموس» أو ما سميناه في وقت سابق «المعجم المدوّن»^(١) ، أي ما يُسمّى بالفرنسية Dictionnaire وبالانجليزية Dictionary، ويتأكد هذا المفهوم في الأدبيات اللسانية التوليدية خاصة . فقد مرّ البرنامج التوليدي حتى أواخر القرن العشرين (١٩٥٧ - ١٩٩٥) بخمس مراحل هي (أ) المرحلة التأسيسية؛ (ب) مرحلة «النظرية المعيارية» أو «النظرية النموذجية» (Standard Theory)؛ (ج) مرحلة «النظرية النموذجية الموسّعة» (Extended Standard Theory)؛ (د) مرحلة «النظرية النموذجية الموسّعة المعدّلة» (Revised Extended Standard Theory)؛ (هـ) مرحلة البرنامج الأدنى (Minimalist Program) . وقد تطوّرت النظرة إلى المعجم في البرنامج خلال هذه المراحل لكنها بقيت مشدودة إلى فكرتي «الشذوذ» و«القائمة»، فإن الوحدة المعجمية قد بقيت خاضعة لمفهوم «الوحدة القاموسية» أي «المدخل» (Lexical entry) في القاموس . وهذا الخضوع دالّ على أن المعجم لم يخرج عن مفهوم القائمة من المفردات المداخل، أي عن مفهوم «المعجم القاموس»^(٢)؛ على أن هذا

(١) ينظر ابن مراد ، إبراهيم : مقدمة لنظرية المعجم ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ينظر فيه مثلاً ص ١٤ ، ١٦ .

(٢) يعتبر تشومسكي في كتابه «قراءات في العمل والربط» أن «المعجم مجموعة من المداخل المعجمية ، كل مدخل منها محدّد من حيث مقولته ومن حيث بنية المفاعيل التي يتطلبها ، مع بعض الاستعمالات الخاصة» - ينظر : Chomsky, Noam : *Lectures on Government and Binding*, Foris Publications, ١٩٨١ ، p. 93. Dordrecht. وقد أكد مفهوم المعجم القاموس غيره من التوليديين أيضاً - ينظر مثلاً : Radford, Andrew : *Minimalist Syntax. Exploring the Structure of English*, Cambridge University Press, Cambridge, 2004 ، وقد قال (ص ٩) : «مما يكوّن النحو معجمٌ

«المعجم القائمة» مشتمل على ما يسميه تشومسكي الشواذ (Exceptions) والاستعمالات الخاصة (Idiosyncrasies) التي لا تكتسب في نظام اللغة دوراً مركزياً بل هي ذات دور ثانويٍّ متمم . وقد عبر عن مفهومي القائمة والشذوذ تعبيراً واضحاً في قوله : «والمعجم فيما أرى لا يخرج عن المفهوم التقليدي الذي شاع له : وهو أنه قائمة من «الشواذ» (A list of “exceptions”) لا تنتج بأيّ حال عن مبادئ عامة. وهذه المبادئ تنقسم إلى صنفين : مبادئ النحو الكليّ (UG) ، ومبادئ اللغة الخاصة . والصنف الثاني يشمل مظاهر صوتية وصرفية ، مجموعة منتقاة من الاختيارات الواسطية (parametric) ، وكلّ ما عدا ذلك يمكن له أن يدخل في [باب] التنوع (variation) اللغويّ ”^(١) . وقد حدّد دوره في نظام اللغة تحديداً أدق في قوله : «لكلّ لغة خاصّة فيما نرى نظاماً عرفانيّ يقوم على نظام حاسوبيّ (CS) ومعجم (Lexicon) . والمعجم يخصّص العناصر التي ينتقيها النظام الحاسوبيّ ويدمجها لتكوين العبارات اللسانية - الصورة الصوتية (PF) والصورة المنطقية (LF) معا . وليس للمعجم

Lexicon (= قاموس dictionary = قائمة list لكل البنود المعجمية / الألفاظ في اللغة وخصائصها اللسانية) : وينظر فيه ص ١٥٨ وخاصة ص ٤٦٠ ، وقد ورد فيها «المعجم هو القاموس (أي قائمة لكل الألفاظ في لغة ما ولخصائص الاستعمالات اللغوية الخاصة idiosyncractic linguistic properties فيها)» ، ولا نعلم كيف يكون القاموس مستوعباً «لكلّ ألفاظ اللغة» ؟ - ينظر تعقيبنا على هذا المفهوم الأول للمعجم بعد قليل .

Chomsky, Noam : *The Minimalist Program*, The MIT Press, Cambridge, (١) Massachusetts, London, 1995, p. 235 وينظر له أيضاً : *New Horizons in the Study of Language and Mind*, Cambridge University Press, Cambridge, 2000 وقد قال فيه : «يمكن لنا أن نذهب إلى أن العملية الأولى - وهي جمع السمات في البنود المعجمية - هي في جوهرها قائمة (list) من البنود المعجمية (lexical items) . وهذه القائمة - المسماة معجماً - هي حسب الاصطلاح التقليدي قائمة من «الشواذ» ، تجمعت اعتباراً بين الصوت والمعنى واختيارات خاصة من بين الخصائص التصريفية (inflectional properties) التي تتيحها الملكة اللغوية (faculty of language) التي تحدّد لنا كيف نبين أن أسماء ما أو أفعالا ما هي مستعملة في الجمع أو في المفرد ، وأن أسماء ما هي في حالة الرفع (nominative case) أو في حالة النصب (accusative case) ، وهلمّ جرا» - ص ١٠ . ويلاحظ تأكيده ارتباط المعجم بالقائمة وتكون القائمة من الشواذ .

أن يوفّر غير المعلومة التي يتطلبها النظام الحاسوبي ، دون إطناب ، وبقدر كاف من الجودة ، مع استبعاد كل ما يمكن أن يُسْتَبَانَ بواسطة مبادئ النحو الكليّ (UG) أو خصائص اللغة [الخاصة] المعنيّة . وكلّ بنود (Items) المعجم - على التقريب - تنتمي إلى المقولات الجوهرية (Substantive categories) التي نرى فيها الاسم والفعل والصفة والأداة ، مع أطراح عدد كبير من المسائل المهمة المتعلقة بطبيعتها وبالعلاقات فيما بينها . أما المقولات الأخرى فنسميها [مقولات] وظيفيّة (Functional) ، [مثل] زمن الفعل ، والمتّمم... إلخ) ^(١) . فليس للمعجم من دور إذن إلاّ توفير المعلومة التي يتطلبها النظام الحاسوبي - وهو في البرنامج الأدنىّ المكوّن التركيبي في علم النحو - دون توسع أو إطناب ، وفي هذا إقرار ظاهر بتبعيّة المعجم للنحو . وكل ما له علاقة بالمبادئ النظرية التي يقوم عليها النحو الكليّ إذن مُبَعَّدٌ عن المعجم لأنّه ليس من مجاله .

١ - ٢ - ٢ . المعجم الذهني :

والمفهوم الثاني مفهوم قد ظلّ غامضاً وغير مستقرّ في الدرس اللساني الحديث هو «المعجم الذهني» (Mental lexicon = Lexique mental) ، وهو يختلف عن مفهوم «القاموس» عند المنظرين التوليديين مثل اللسانيّ المغربي عبد القادر الفاسي الفهري ، فهذا اللساني يرى أنّه : «إذا كان موضوع البحث في المعجم هو الملكة المعجمية (Lexical competence) لتكلم لغة معيّنة ، فإنّ المقصود بالمعجم هنا هو المعجمُ الذهنيّ (Mental lexicon) الذي نفترض أنّه يدخل ضمن تحديد قدرة المتكلم اللغوية أو ملكته ، لا الصناعة القاموسية أو المؤلف الذي يضعه الواصف لرصد هذه القدرة الباطنيّة ، أو على الأصحّ جزء من هذه القدرة ، فكلّ متكلم للغة يتكلّمها بمعجم ذهنيّ محدّد ومضبوط ، وهو لا يستعمل بالضرورة قاموساً للتوصل إلى معرفة واعية (وملقنة) لهذه اللغة . فالتفريق بين الملكة أو الجهاز الذهنيّ والآلة الواصفة لهذا الجهاز الذهنيّ أمرٌ

«ضروري»^(١). لكن المعجم بهذا المفهوم ليس مكتسباً اكتساباً بين أفراد الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها المتكلم بل هو رصيد من الوحدات المعجمية مخزن في الذهن وللمتكلم القدرة الفائقة على تذكره واسترجاعه وتأويله عندما يتكلم. وهنا يبرز تفرّيع آخر لتعريف المعجم الذهني الذي يصبح نظاماً للتخزين والاسترجاع وأحكاماً تمكن المتكلم من التفريق بين ما هو من لغته وما ليس من لغته من الوحدات المعجمية. وفي ذلك يقول الفهري: «إن المتكلم المؤول للعربية يجب أن يكون قادراً على بناء آلة معجمية ذهنية يستطيع بواسطتها أن يقوم بالتخزين الكثيف المنظم للمواد. وبصفته مؤولاً يستطيع أن يصدر القرارات والأحكام المعجمية التي تمكنه من أن يحكم على كلمة ما بأنها تنتمي إلى لغته (أي إنها كلمة) أو لا تنتمي (أي إنها لا كلمة). بمعنى آخر إنه يسمع كلمات كالكلمات التي سبق له أن سمعها سواء في صوتها أو في تركيبها أو في دلالتها أو في مقامها. ومع ذلك يعرف أنها كلمات، وبنفس الكيفية فإنه يسمع متواليات صوتية ويعرف أنها ليست كلمات. فهذه الأحكام وهذا النظام الذي يمكنه من التخزين ومن الاسترجاع هو ما نسميه بالمعجم الذهني (Mental lexicon)»^(٢).

بل إن هناك تفرّيعاً ثالثاً لتعريف المعجم الذهني يخرج عن المفهوم الأول - باعتباره ملكة المتكلم اللغوية أي «المجموع المخزن في الذاكرة من الوحدات المعجمية» - وعن المفهوم الثاني باعتباره «الأحكام والنظام الذي يمكن المتكلم من التخزين والاسترجاع» ليصبح مجموع المعلومات (Informations) التي تكون للمتكلم عن المفردات (Words) باعتبارها «مداخل» أي عناصر في «قائمة»، ومجموع التمثيلات الذهنية (Mental representations) التي

(١) الفهري، عبد القادر الفاسي: المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، دار تويقال للنشر، الدار البيضاء،

١٩٨٦، ص ١٤.

(٢) الفهري، عبد القادر الفاسي: «إنشاء قاعدة معجمية عربية مولدة»، في الفهري (مشرف): المعجم

العربي المولد (وقائع ندوة)، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، ٢٠٠٢ (ص ١١ - ٣٣)، ص

ص ١٤ - ١٥.

تكون لها في ذهنه . والمعلومات والتمثيلات التي تكون للمتكلم عن المفردات المداخل تكون صوتيّة (Phonological) وإملائية (Orthographic) وصرفيّة (Morphological) وتركيبية (Syntactic) ودلالية (Semantic). وهذه المعلومات والتمثيلات هي المكونات الفرعية (Subcomponents) للمعجم الذهني ، فهو «معجم عناصري» (Componential lexicon) تتمثل عناصره في مختلف المعلومات والتمثيلات التي تكون للمتكلم عن المفردات ^(١). وهذه التعريفات الثلاثة للمعجم الذهني تؤكد ضباية المفهوم التي أشرنا إليها .

١ - ٣ . في المعجم اللساني :

ونرى أن المفهومين السائدين - المعجم القائمة من الشواذ والمعجم الذهني - مفهومان ضعيفان لا يستقيمان. فإن المعجم باعتباره قائمة يخلط خلطاً ظاهراً بين المعجم والقاموس ، أي بين ما سماه الفهري "ملكة المتكلم" وما سماه "آلة الواصفة لتلك الملكة" ، وقد رأينا من يؤكد المزج بينهما فيجعل من المعجم قاموساً ومن القاموس معجماً ؛ ثم إن "القائمة" مهما تتسع ومهما تستوعب من "المدخل" أو "الوحدات القاموسية" فإنها تبقى جزئية منقوصة إذ لا يمكن للقاموس أن يستوعب كل اللغة ، ولذلك فإن قول بعضهم إن المعجم القاموس "قائمة لكل الألفاظ في لغة ما" ^(٢) هو قول ساذج لا يُقره واقع الاستعمال اللغوي لأي لغة وخاصة اللغات الحية الواسعة الانتشار أو ذات العدد الكبير من المستعملين مثل اللغتين الانجليزية والعربية .

وأما المعجم الذهني فهو في جوهره "قدرة باطنية" محددة ومضبوطة لدى المتكلم تمكنه من استعمال اللغة بما اختزنه في ذهنه من وحدات معجمية

(١) ينظر تحليل موسع للمعجم الذهني ومكوناته في : Emmorey, Karen and Victoria Fromkin :

« The mental lexicon », in Newmeyer, Frederick (edit.) : *Linguistics : The Cambridge Survey*, vol. III : *Language : Psychological and Biological Aspects*, Cambridge University Press, Cambridge, 1988, (pp. 124 – 149), pp. 124 – 126 .

(٢) ينظر Radford, Andrew : *Minimalist Syntax. Exploring the Structure of* p. 460

English, ويراجع التعليق (٢٤) .

تُوجد فيه بالفطرة ولم يكتسبها اكتساباً بين أفراد الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها . وكون المعجم ملكةً لدى الفرد المتكلم - وينبغي أن يكون متكلماً مثاليّاً وأن تكون لغته لغة مثالية لا تخالطها "الطوارئ" من المولدات والعاميّات والمقتربات المعجمية - وقدرةً باطنيةً محددةً مضبوطة يدلّ على أنه "معجم فرديّ"، أي خاص بالفرد المتكلم باعتبار أن لكل متكلم ذهنه الذي لا يشبه بالضرورة أذهان غيره من أفراد الجماعة اللغوية ، وأن لكل فرد ذاكرته الخاصة به التي تخزّن ما تسمح له استعداداته الخاصة بتخزينه من المفردات ومن التمثيلات والمعلومات الخاصة بها أو الخاصة بالموجودات التي تحيل إليها ^(١) . ولذلك فإن لكل متكلم معجمه الذي لا يشبه بالضرورة معاجم غيره من المتكلمين . وهذا مخالف فيما نرى لطبيعة المعجم لأن المعجم الذهني الفرديّ هو بالضرورة معجم جزئي محدود لأنه خاص بمتكلم فرد . وأما المعجم كما نتصوره فهو الرصيد العام الشامل لكل ما يستعمله أفراد جماعة لغوية ما - سواء كبرت أو صغرت - من الوحدات المعجمية . أي إنه الرصيد العام الشامل المكون للغة جماعة لغوية ما . ومن أجل اتساعه وامتداده في أذهان أفراد الجماعة اللغوية جميعهم فإننا نسميه "المعجم اللساني" ^(٢) ، ومن أهم خصائص المعجم اللسانيّ أنه "جماعيّ" لأن الوحدات المعجمية التي تكوّن الرصيد المعجمي الشامل هي وحدات قد استقرت في "الذهن الجماعي" بالمعاني التي أعطيت لها وتواضعت عليها الجماعة اللغوية وأصبحت من "المشترك" المتواضع عليه الذي يتحقق به الفهم والتفاهم بين أفراد الجماعة اللغوية .

وللمعجم اللساني بعدان : بُعدٌ آنّيّ (Synchronique) يمثله ما تستعمله الجماعة اللغوية من وحدات معجمية في حاضرها ، وبعدٌ زمنيّ (Diachronique) يمثله ما استعملته الجماعة اللغوية في مراحل سابقة من

(١) استعمل تشومسكي عبارة «معجمي الذهني» (my mental lexicon) في الحديث عن تمثيل المعلومة عن

بعض الأشجار - ينظر Chomsky, Noam : *New Horizons in the Study of Language and*

Mind, p. 32 .

(٢) ابن مراد ، إبراهيم : من المعجم إلى القاموس ، دار الغرب الإسلامي ، تونس - بيروت ، ٢٠١٠ ، ص ٦ .

استعمالها للغتها ودُونَ عنها في النصوص. و"الآنيَّةُ المعجميَّةُ" العربية مثلاً تنتمي إليها الوحدات المعجمية المستعملة في الفترة التي توصف فيها اللغة، وهي في هذا الآن مثلاً ممثلة في ما تتكلم به الجماعة اللغوية العربية الكبرى من آخر حدودها في المشرق إلى آخر حدودها في المغرب، ويستوي في الاستعمال العربي المكتوب والعربي المنطوق. وهذا المستعمل الآن من العربية يُصنَّف إلى أربعة مستويات لغوية^(١)، هي:

(١) الفصيح وهو ما نُسِّمُه "العربي الأدبي" اليوم، وهو العربي المتداول الشائع في الاستعمال منذ عصور الفصاحة القديمة، وهذا الرصيد يصف عادة المظاهر المستمرة الباقية من تجربة مستعملي اللغة العربية، المتوارثة بين الأجيال.

(٢) المولَّد، وهو عربي أيضاً لكنه مستحدث في اللغة قد وُلِّدَ فيها توليداً وخاصة لسدِّ خانات معجمية فارغة فيها في "لغات الاختصاص" خاصة، أي في مجالات العلوم والفنون، ولذلك فإن أكثر المولَّد يوجد في مصطلحات العلوم والفنون للتعبير عن المفاهيم الجديدة.

(٣) العامي، وهو عربي لكن العامة قد غيرته إما صوتياً وإما صرفياً وإما دلالياً فخرج عن أصوله الفصيحة وخالفها في مظهر أو أكثر من مظاهره اللسانية، وهذا المستوى هو المكوّن لعامة المنطوق من اللغة. على أن العاميات العربية تُعدُّ اليوم خزاناً ثرياً جداً مليئاً بالأصول الفصيحة التي لا تزال حية في القواميس العربية أو التي سقطت من الاستعمال الفصيح فلم تدونها القواميس.

(٤) الأعجمي المقترض وهو ما أُدْخِلَ في العربية من اللغات الأخرى

(١) ينظر حول المستويات اللغوية: ابن مراد، إبراهيم: المعجم العلمي العربي المختص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٨٤ - ١٠٣: نفسه: مسائل في المعجم، ص ١٣٤ - ١٤٢: نفسه: من المعجم إلى القاموس، ص ٢٢٤ - ٢٣٤.

إمّا اضطرارا وخاصة ضمن المولّد لسد الخانات المعجميّة الفارغة أثناء عمليات الترجمة - وهذا يقع في المصطلحات - وإمّا اختيارا وخاصة في ألفاظ اللغة العامة عندما يلجأ المتكلمون إلى استعمال ألفاظ أعجمية تزاخم ألفاظا عربية قائمة في الاستعمال ، لكن هذا لا يعني أن الاضطراري والاختياري من المقترضات لا يتداخلان .

وأما ”الزّمانية المعجمية“ العربية فتنتمي إليها الوحدات المعجمية التي استعملت في الماضي القريب أو البعيد وذهب المتكلمون الذين استعملوها لكنها بقيت في النصوص التي دونوها . ومن هذا الزماني ما هو داخل في الآني لأنه منتم إلى المستوى اللغوي الآني الذي سميناه ”العربي الأدبي“ ووصفناه بالفصيح . على أن من الزماني ما يتواصل استعماله لكنه محمّل بمعان جديدة غير المعاني التي كانت له في الماضي ، وليس من الصعب تتبعه زمانيا لفهم حقيقة دلالاته في الماضي وعلاقتها بدلالاته في الحاضر ، ومنه ما سقط من الاستعمال لأن المراجع التي يحيل إليها قد بليت فأنعدمت الحاجة إلى استعماله ، لكنه بقي في النصوص التي دُوّن فيها شاهدا على أدائه وظيفة إحاليّة في وقت ما في المعجم العربي .

ويمكن لنا أن نستنتج بعد هذا (١) أن بين البعدين الآني والزماني في المعجم العربي ترابطا وتوصلا لأنّ ما تستعمله الجماعة اللغوية العربية في حاضرها هو امتداد طبيعي لرصيد زماني سابق كان بدوره آنيا في مرحلة سابقة من مراحل استعمال اللغة . وهذا التواصل بين البعدين هو الذي يحقق في كل عصر من عصور استعمال اللغة التواصل بين الأجيال المتعاقبة المتكلمة بها ، فيفهم المتكلم بالعربية اليوم ما كان يستعمله المتكلم بها منذ قرون خلت ، وخاصة إذا كانت المراجع التي تحيل إليها الوحدات المعجمية المستعملة قائمة لم تبطل بعد . (٢) أن الرصيدين الآني - بتنوّعاته - والزماني معا يكونان المعجم العربي ، ولذلك اعتبرنا المعجم هو الرصيد الشامل المكوّن للغة جماعة لغوية ما .

٢ - المعْجَمُ واللغة :

٢ - ١ . في مفهوم الوَحْدَةِ المعْجمية :

قوامُ المعجم الوحدات المعجمية، مثلما أن قوام النحو هي الوحدات النحوية . وإذا كان مفهوم الوحدة النحوية واضحا - فهي الجملة بمفهومها التركيبي التقليدي - فإن مفهوم الوحدة المعجمية في الأدبيات اللسانية الحديثة ما زال غير دقيق . فإن المفهوم الشائع لها هو مفهوم "اللفظ" أو "الكلمة" أو "المفردة"، ويقابلها في الفرنسية مصطلح «Mot» وفي الانجليزية مصطلح «Word». والتعريف المذهب للمصطلحين الفرنسي والانجليزي إلى وقت قريب هو أن المفردة هي "الوحدة الخطية الواقعة بين بياضين" أو بين فراغين ^(١) . وقد وجد هذا الاستعمال أربعة مسوغات : أولها مسوِّغ قاموسي ، فإن القواميس منذ القديم - أي بداية من القاموسية العربية - تعتمد المداخل المعجمية (Lexical entries) في حالة الأفراد ، سواء كانت مداخل جذرية باعتماد «الجذور» مداخل رئيسية ، أو كانت مداخل جذعية ، أي باعتماد المفردات القائمة في الاستعمال مداخل رئيسية ، وما زالت القواميس الأوروبية والأمريكية إلى اليوم تعتمد المداخل الجذعية الفردية ؛ والمسوِّغ الثاني راجع إلى المفهوم اللساني لمصطلح «وحدة» (Unit = Unité) ، فالوحدة تعني «العنصر الواحد» ، وقد ظهر مفهوم الوحدة في اللسانيات في علم الأصوات و«الوحدة الصوتية» فيه هي «الصوت» أو «الفونيم» (Phoneme) ، وظهر في علم الصرف و«الوحدة الصرفية» فيه هي «الصرف» أو «المورفيم» (Morpheme) ، كما ظهر في علم المعجم - قياسا على الأصوات والصرف - و«الوحدة المعجمية» فيه هي «اللكسيم» (Lexeme) وهي المفردة ذاتها؛ والمسوِّغ الثالث «إحصائي» (Statistical) لأن الإحصاء

(١) ينظر في اللسانيات الفرنسية مثلا: Mounin, Georges (dir.) : *Dictionnaire de la linguistique*, PUF, Paris, 1974 , p. 223 ; Dubois, Jean et al. : *Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage*, Larousse, Paris, 1994, p. 312 ; Mortureux, Marie — Françoise : *La lexicologie entre langue et discours*, SEDES, Paris, 1997, pp. 21 - 22 , p. 190 .

(Statistics) في اللسانيات - وخاصة في المدونات النصية - لا يُجرى إلا على المفردات . فإن عمليات الإحصاء الآلية التي تجرى على النصوص الأدبية مثلا ليس لها من مقياس للتمييز بين الوحدات المكونة للنص إلا الفراغات أو البياضات الفاصلة بينها ؛ والمسوّغ الرابع معلوماتي متصل بالمعالجة الآلية للغة الطبيعية (ANLP) ^(١) - وهي اليوم باب من أبواب "اللسانيات الحاسوبية" (Computational Linguistics) - وهي تعتمد في المقام الأول على تقطيع النصّ أو المقال إلى وحداته المعجمية متمثلة في الألفاظ المكونة له .

وإذا استثنينا اللسانيات التوليدية التي تستعمل مصطلح «Lexical item» في معنى «Word» ^(٢) ولا ترى في هذا حرجا ما دام منطلق التحليل فيها هو "المدخل المعجمي" (Lexical entry) الذي غلب ظهوره في التقاليد القاموسية منذ القديم في حالة الأفراد ، فإن أغلب المدارس اللسانية - وخاصة في اللسانيات البنيوية (Structural Linguistics) واللسانيات العرفانية (Cognitive Linguistics) - تميل إلى عدم ربط الوحدة المعجمية بالمفردة في صورتها الخطية ^(٣) . فإن هذه المسوغات الأربعة - وحتى إذا أضفنا إليها

(١) Automatic Natural Language Processing ، ويقابله في الفرنسية مصطلح «المعالجة الآلية للغات

الطبيعية» TALN = Traitement Automatique des Langues Naturelles .

(٢) Radford, Andrew : *Minimalist Syntax. Exploring the Structure of English* , p. 460 ;

ونشير هنا إلى أنّ من الكتب التوليدية التأسيسية لما يمكن تسميته «علم الصرف التوليدي» كتاب «تكوّن

المفردة في النحو التوليدي» لمارك أرونوف : Aronoff, Mark : *Word Formation in Generative* ;

Grammar, MIT Press, Cambridge — Massachusetts, London, 1976 ، ولم يخرج أرونوف

في كتابه هذا عن دراسة الظواهر المتعلقة بتولد المفردة .

(٣) ينظر خاصة : Martinet, André : *Eléments de linguistique générale*, 5^{ème} éd.,

Armand Colin, Paris, 2008, pp. 127 – 130 ; Dubois, Jean et al. : *Dictionnaire de*

linguistique et des sciences du langage, pp. 312 – 31 ; Tournier, Jean : *Précis de*

lexicologie anglaise, 3^{ème} éd., Editions Nathan, Paris, 1993, pp. 9 – 10 ; Lerot,

Jacques : *Précis de linguistique générale*, Les Editions de Minuit, Paris, 1993, pp.

Guilbert, Louis : 66 – 67, 75, 340 ؛ وينظر عرض مفصل لمفهوم «Mot» في اللسانيات الحديثة في :

La créativité lexicale, Larousse, Paris, 1975, pp. 105 – 135

مستوًع اعتماد البرنامج التوليدي مفهوم "البند المعجمي" للدلالة على "الوحدة القاموسية" - لم تقنع كثيرا لتعريف الوحدة المعجمية بالمفردة . وقد ناقشنا هذه المسألة من قبل^(١) وبينّا أن مفهوم الوحدة المعجمية لا ينحصر في المفردة وأن المفردة ليست إلا صنفا من أصناف الوحدات المعجمية . ورغم أهمية المسوغات الأربعة التي ذكرناها - ويمكن اعتبارها "مقاييس" لكثرة الاعتماد عليها - فإنها لا تصلح لتحديد مفهوم الوحدة المعجمية ، فإن هذه الوحدة لا تُحدّد من خلال الفراغين أو البياضين اللذين يحيطان بها من يمينها ومن شمالها بل تحدد من خلال الوحدة الدلالية (Meaning Unit = Unité de signification) التي تحملها أو الوحدة المفهومية (Conceptual Unit = Unité conceptuelle) التي تحيل إليها . ونظرية المعجم اللساني تبين أن الوحدة الدلالية والوحدة المفهومية لا تدل عليها المفردة الواحدة فقط بل تدل عليها المفردتان مجتمعتين أو المفردات مجتمعة .

وقد أدّى هذا التوسع في مفهوم العلاقة بين الوحدة المعجمية والدلالة إلى ظهور ثلاثة أصناف من الوحدات المعجمية حسب الخصائص التي تكون لها، وهي ثلاث :

الأولى هي "خاصية الإفراد"، أي أن تكون الوحدة المعجمية "مفردة"، والمفردة من حيث البنية الصرفية كيان صرفي معجمي تامّ ، وهي لذلك تكون جذعاً بسيطاً أي "وحدة معجمية بسيطة"، ومثالها "كَتَبَ" من مقولة الفعل، و"مَكْتَبٌ" من مقولة الاسم، و"كَاتِبٌ" من مقولة الصفة .

والخاصية الثانية هي "التركيب" (Composition)، وهو ظاهرة

(١) ينظر ابن مراد ، إبراهيم : من المعجم إلى القاموس ، ص ص ٣٦ - ٥٠ (بحث : «الوحدة المعجمية بين الإفراد والتضام والتلازم») : نفسه : «المعالجة القاموسية للوحدات المعجمية العربية المركبة والمعقدة والعبارية» ، في شرايبي ، فيصل وآخرين (إشراف) : دراسات وأبحاث معجمية ، تراثية وأدبية ، مهداة إلى عبد الغني أبو العزم ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، عين الشق ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٩ ، (ص ص ١٩ - ٤٤) ، ص ص ١٩ - ٢٢ : نفسه : المعجم العربي بين التنظير والتطبيق ، الجامعة الأمريكية في بيروت ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ص ٦ - ٨ .

معجمية تعبر عما نسميه «التضام» (Collocability = Collocabilié) ، وهو أن يتجمع عنصران معجميان - أي مفردتان - أو أكثر تجمعاً عادياً تنتج عنه عادة ظاهرتان : الأولى هي الإحالة إلى تجربة الجماعة اللغوية ، والثانية هي حمل المفردتين المتضامتين أو المفردات المتضامة وحدة دلالية قابلة للتحديد. ومفهوم التركيب إذن هو أن تتكوّن الوحدة المعجمية من مفردتين أو أكثر ، وأن يكون تكوينها تكويناً تضامياً ، وهي تُسمّى إذا تكوّنت من مفردتين "وحدة معجمية مركبة" ، ومثالها "أذان الجدّي" وهو اسم نبات ، و"بيت الإبرة" وهو اسم البوصلة ؛ وتسمّى إذا تكوّنت من ثلاث مفردات أو أكثر "وحدة معجمية معقدة" ، ومثالها "أمّ وجع الكبد" وهو من أسماء النبات القديمة ، و"العضلة القابضة القصيرة الخنصرية" وهو من مصطلحات علم التشريح .

والخاصية الثالثة هي "التلازم" (Idiomaticité) ^(١) ، وهو أن تتلازم العناصر المعجمية - نتيجة تواترها في الاستعمال واستمرار ائتلافها في كلام الجماعة اللغوية للتعبير عن خصوصية ما في تجربتها في الكون - تلازماً

(١) نحن نفرق هنا بين حالتين لم نر من فرق بينهما من قبل تفريقاً واضحاً دقيقاً: (١) حالة التضام التي تختص بها الوحدات المعجمية المركبة سواء كانت مركبة تركيبياً حقيقياً أي كانت ثنائية التكوين (Unités lexicales composées) أو كانت وحدات معجمية معقدة (Unités lexicales complexes) أي ذات عناصر معجمية تزيد على الاثنين ، وقد جعلنا «التضام» مقابلاً للمصطلح الفرنسي «Collocabilité» المقابل بدوره للمصطلح الانجليزي «Collocability» ، وأما الوحدات المعجمية المتضامة ذاتها فتسمّى «Collocations» بالفرنسية والانجليزية - ينظر Lyons, John : *Sémantique lexicale*, traduit par J. Durand et D. Boulonnais, Larousse, Paris, 1980, p. 237. «Collocation» قد يطلق على الظاهرة ذاتها أيضاً في الدراسات اللسانية الحديثة التي قد تعمم مفهومه حتى يشمل كل ما زاد على المفردة الواحدة من الوحدات المعجمية غير العبارة - ينظر مثلاً : Lerot, Jacques : *Précis de linguistique générale*, pp. 171 - 172 ؛ هليل ، محمد حلمي : «الأسس النظرية لوضع معجم للتلازمات اللفظية العربية» ، في مجلة المعجمية ، ١٢ - ١٣ (١٩٩٦ - ١٩٩٧) ، (ص ص ٢٢٥ - ٢٤٨) ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٩ ، وقد سمّي الظاهرة «تلازماً لفظياً» وسمى الوحدات المعجمية المنتمية إليها «متلازمات لفظية» : (٢) حالة التلازم التي تختص بها الوحدات المعجمية العبارة ، سواء كانت وحدات عبارية تحليلية أو كانت عبارات اصطلاحية ، وقد جعلنا التلازم مقابلاً للمصطلح الفرنسي «Idiomaticité» ، ولم نعرّله على مقابل انجليزي ، وأما الوحدات المعجمية المتلازمة فتترجم بـ «Idiomes» أو بـ «Idiotismes» .

يؤدي إلى تجمدها أو تكلّسها (Figement) حتى تنشأ عنها "عبارة معجمية" (Expression lexicale) وتسمّى الوحدة المعجمية عندئذ "وحدة معجمية عباريّة" أو "متلازمة لفظية" كما يطيب للبعض أن يصطلح عليها . والوحدات المعجمية العبارية ثلاثة أنواع :

(١) الأوّل أن تكون عبارة تحليلية قوامها قولٌ شائع أو سائر ، وخاصيتها الأساسية قيامها على المجاز الذي يقبل الترجمة الحرفية إلى لغة ثانية ، فهي عبارة عامة تحيل إلى ظاهرة عامة في تجربة الجماعة اللغوية كثيرا ما يوجد ما يشبهها في تجارب الجماعات اللغوية الأخرى، ومثالها "ضَرَبَ الْعُمْلَةَ" أي سَكَّهَا، و"اقتضى الأثر" أي تبعه ^(١).

(٢) والثاني أن تكون عبارة مثليّة قوامها مثلٌ من الأمثال الشائعة في الاستعمال، وهي قائمة على المجاز أيضا ، وهي رغم قيامها على المجاز ذات قابلية للترجمة أيضا إما ترجمة حرفية وإما ترجمة تقريبية بعبارة مثليّة تشبهها في اللغة التي تنقل إليها ، لأنها تحيل إلى ظاهرة عامة أو تجربة مشتركة بين أفراد جماعات لغوية مختلفة، ولذلك فإن كثيرا من الأمثال يتشابه أو يتطابق التعبير عنه في أكثر من لغة ^(٢).

(٣) والثالث أن تكون عبارة اصطلاحية معبرة عن خصوصية ما في تجربة الجماعة اللغوية في الكون ، والخصوصية في التجربة تؤدي

(١) يقال في الفرنسية أيضا «Battre monnaie» و«Frapper la monnaie» بمعنى «سك العملة»، ومعنى «Battre» و«Frapper» فيها هو «ضَرَبَ» ؛ ويقال فيها أيضا «Suivre la trace» أي اتبع الأثر .

(٢) من ذلك قولنا في العربية «أَجُوعُ من ذئب» الذي يقابله في الفرنسية قولهم «Avoir la faim d'un loup» ؛ وقولنا في العربية «كالمستجير من الرمضاء بالنار» ، ويوافقه في الفرنسية قولهم «D'un mal il tombe dans un pire» .

إلى خصوصية في الدلالة ، وهذه الخصوصية الدلالية تجعل من المجاز الذي تقوم عليه العبارة غير قابل للترجمة الحرفية إلى لغة ثانية^(١).

والنتيجة التي نخرج بها من الخاصيات الثلاث التي ذكرنا هي أن الوحدة المعجمية تكون بسيطة إذا تكونت من مفردة واحدة ، وتكون متضامة مركبة إذا تكونت من مفردتين ، وتكون متضامة معقدة إذا تكونت من ثلاث مفردات فأكثر، وتكون عبارية متلازمة إذا كانت عبارة معجمية تحليلية أو مثليّة أو اصطلاحية^(٢). وهذا يعني أن المفردة نوع من الوحدة المعجمية وليست الوحدة المعجمية مطلقا . والاستنتاج العام الذي يمكن أن نصوغه هنا هو أن "كل مفردة وحدة معجمية وليست كل وحدة معجمية مفردة". لكن هذا التحديد لا ينفي

(١) من أمثلتها في العربية قولنا «ضرب بذقته الأرض» أي أطرق جبنا واستحياء ، و«حنّكته التجارب» أي أحكمته : ومنها قول الفرنسيين «Se fourrer les doigts dans l'oeil» أي انخدع ، و«Casser sa pipe» أي مات .

(٢) نجد محاولات سابقة للخروج بالوحدة المعجمية من المفردة إلى ما هو أشمل منها . ومن أهم الدراسات التي خصصت للمركبات والمعقدات نذكر : Benveniste, Emile : *Problèmes de linguistique générale*, Gallimard, Paris, 1966 – 1974, 2/163 – 176 ; Guilbert, Louis : *La créativité lexicale*, pp. 220 – 269 . ونذكر من اللسانيين الذين حاولوا تصنيف أنواع الوحدات المعجمية انطلاقا من وصف المعجم الانجليزي: Tournier, Jean : *Précis de lexicologie anglaise*, pp. 11 – 13 . وقد سمى الوحدات المعجمية «Lexies»، ومصطلح «Lexie» قد ظهر في اللسانيات الفرنسية لتعويض مصطلح «Mot» . وأنواع الوحدات عنده خمس ، هي (١) وحدات معجمية أولية «Lexies primaires» وهي الخالية من الزوائد الاشتقاقية ، وقد اعتبرناها وحدات بسيطة لأنها مكونة من عنصر معجمي واحد؛ (٢) وحدات معجمية مشتقة «Lexies dérivées» ، وهي المكونة من الوحدات الأولية ومن زوائد (سوابق ولواحق) قد أضيفت إليها ؛ (٣) وحدات معجمية مركبة «Lexies composées» ، وهي تشمل ما سميناه وحدات مركبة ووحدات معقدة لأنها قد تكون من مفردتين أو أكثر؛ (٤) الوحدات الجريّة «Lexies prépositionnelles» وهي المبدوءة بحرف جر (Préposition) مثل «with» ، وقد يوجد هذا في العربية في المصطلحات العلمية المترجمة من اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ونحن ننسب إلى المركبات إذا كان المصطلح ثنائي التكوين وإلى المعقدات إذا كان المصطلح متكونا من ثلاثة عناصر معجمية فأكثر ؛ (٥) الوحدات المعجمية المعقدة «Lexies complexes» ، وتنتمي إليها الأمثال وما سماه «الجملة المعجمة» (Phrases lexicalisées) وهي توافق عندنا ما سميناه «وحدات معجمية عبارية» .

عن الوحدة المعجمية البسيطة أو المفردة دورها الأساسي في اللغة عامة وفي المعجم خاصة . فهي العنصر الأساسي الذي لا تكون الجملة النحوية بدونه جملة تامة ، وهي العنصر الرئيسي الذي لا يمكن أن يستقيم تكوين بقية أنواع الوحدات المعجمية بدونه . فهي العنصر الضروري الواجب الوجود في الوحدات المعجمية المركبة والمعقدة والعبارية . ونتيجة لهذه الغلبة ربطت نظرية المعجم في اللسانيات الحديثة بالمفردات ، وعُدَّتْ "نظرية المعجم هي نظرية المفردات" ^(١) . وإذ إن المفردات هي التي تكوّن المعجم - سواء بذاتها مفردة ، وهذا هو الغالب في الوحدات المعجمية العامة ، أو مستعملة مع غيرها في أنواع الوحدات المعجمية الأخرى - وإذ إن نظرية المعجم هي نظرية المفردات ، فقد صار كل ما يكون المفردات يعد من مكونات النظرية المعجمية .

٢ - ٢ . في خاصيّتي التجريد والتعقيد في الوحدة المعجمية البسيطة :

ومكونات المفردة أو الوحدة المعجمية البسيطة ثلاثة لا يتحقق وجودها في اللغة عامة وفي المعجم خاصة إلا بها ، وهي (١) المكوّن الصوتي ؛ (٢) المكوّن الصرفي ؛ (٣) المكوّن الدلالي . وتحقّق هذه المكونات الثلاثة في المفردة يجعل منها ما نُسَمِّيهِ "كيانا معقدا مجردا" . وهو كيانٌ (Entity = Entité) «معقد» لتكوّن المفردة من العناصر الثلاثة : الصوت والبنية الصرفية والمعنى . فإن الصوت ضروري الوجود لكنه حسب نظرية الخليل بن أحمد حول «المركبات الصوتية» التي سماها بـ«المهمل» لأنها ليست ذات امتداد في الاستعمال ، لا يكون الصوت ذا قيمة في المركب الصوتي إلا إذا اقترن بالدلالة ، أي بالمعنى ؛ والبنية الصرفية ذات علاقة بالصوت لأن مجموعة الأصوات الصوامت والصوائت (أو الحروف والحركات حسب الاصطلاح القديم) المكونة للمفردة تنصبّ في قالبٍ يمثل بنيتها الداخلية ؛ والدلالة هي المحدّد لانتماء المركب الصوتي ذي

(١) «La théorie du lexique est la théorie des termes» - ينظر Milner, Jean - Claude : *à une science du langage*. Ed. du Seuil, Paris, 1989, p. 290 , 317 - 318

البنية الداخلية إلى اللغة وإلى المعجم إذ بدون حملة معنى ما لا يتحقق له ذلك الانتماء. والمكونات الثلاثة الدالة على خاصية التعقيد في المفردة هي التي عناها دي سوسير (F. de Saussure) بوجهي الدليل (Signe) اللغوي ، وهما ”الدال” (Signifiant) - وهو الوجه الشكلي، ويكوّنه عنده الصوت فقط - والمدلول (Signifié) ، وهو الوجه المدلولي ، ويكوّنه المعنى .

وتعد المفردة كيانا ”مجردا“ لأن مكونا واحدا من مكوناتها الثلاثة يدرك بالحسّ هو المكون الصوتي لأن المفردة تسمع عندما يُنطق بها، أي عندما تنتقل من اللغة إلى الخطاب. وأما المكونان الصريفي والدلالي فلا يُدركان إلا بالذهن سواء انتمت المفردة إلى اللغة أو ظهرت في الخطاب. وإذا كانت الوحدات المعجمية البسيطة على هذا القدر من التعقيد والتجريد فإن الوحدات المعجمية المركبة والمعقدة والعبارية أشد تعقيدا وأكثر تجريدا. وخاصيتا التعقيد والتجريد إذن هما اللتان تجعلان الوحدات المعجمية تنتمي إلى اللغة قبل أن تنتمي إلى الخطاب ، وتجعل وجودها في المعجم وجودا لغويا لسانيا وليس وجودا مقاميا خطائيا. فهي لا تصلح لأن تكون ذات وظيفة مقامية خطائية إلا إذا اكتسبت وجودها اللغوي في المعجم ، بما لها من التعقيد والتجريد، وما لها من وظيفة إحالية إلى تجربة الجماعة اللغوية في الكون .

٢ - ٣ . الخصائص التمييزية في الوحدة المعجمية البسيطة :

وجود الوحدة المعجمية البسيطة في اللغة ثم في المعجم يفترض أن تكون ”فردا“ لغويا ، أي أن تتحقق لها خصيصة ”التفرد“ (Individuation) فتستقل بذاتها عن غيرها من الوحدات المعجمية الأخرى وعن أي سياق يمكن أن توجد فيه. فهي تكتسب بتحقيق المكونات الثلاثة - الصوتي والصريفي والدلالي - فيها أربع خصائص تمييزية ضرورية واجبة الوجود فيها ، هي : (١) التأليف الصوتي لأن أول ما يؤلف المفردة هي الأصوات ، أي الصوامت والصوائت المكونة لها ؛ (٢) البنية الصرفية ، لأن الأصوات التي تشتمل عليها المفردة لا بد لها من أن تندرج في بنية صرفية قد تقبل التجزئة إلى وحدتين صرفيتين - أي صرفمين (Morphemes) - أو أكثر وفي قالب صريفي معين ينتمي إلى جدول